

العلماء ورثة الأنبياء

اعداد الشيخ / عبده أحمد الأقرع

محمد صلى الله عليه وسلم: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» (النساء: ١١٣). فمن أورثه الله علم الكتاب والسنة فقد اصطفاها، قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ». متفق عليه. إذن فالعلماء وارثو علم الرسالة، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وهم مثال الاستقامة، بالعلم عاملون، وعلى الحق سائرون، يهدون بالحق وبه يعدلون، مصابيح الدجى، وأعلام الهدى، بهم يُهْتَدَى وَيُقْتَدَى، وعلى خطاهم تعيش الأمم على هدى وبصيرة من أمرها بعيداً عن البدع والخرافات ودروب الجهل والضلال، استشهد الله بهم دون غيرهم من البشر على أجل مشهود به وأعظمه: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (آل عمران: ١٨). وأخبر سبحانه أنهم أهل خشيته: «إِنَّمَا يَخْشَى

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَافِعُ أَهْلِ الْعِلْمِ دَرَجَاتٍ، وَالْمُفَضَّلُ لَذَوِي الْعِلْمِ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ، وَأَصْلِي وَأَسْلَمُ عَلَى سَيِّدِ الدُّعَاةِ وَإِمَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اسْتَنْ بَسَنَتِهِ وَاهْتَدَى بِهَدَاهِ. أما بعد: فالعلم مَنْةٌ يَمُنُّ اللَّهُ بِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، قَالَ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» (يوسف: ٢٢)، وقال تعالى عن كليمه موسى عليه السلام: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» (القصص: ١٤)، وقال تعالى عن داود وسليمان عليهما السلام: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ» (النمل: ١٥). فخص العلم بالذكر مع أنه أتاهما مالا ومُلْكًا: «وَكَلَّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» (الأنبياء: ٧٩)، وذكر سبحانه أنهما قالَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ»؛ لاعتقادهما أنهما بالعلم فضلًا على كثير من عباد الله المؤمنين، وامتنَّ سبحانه على نبيينا



اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» (فاطر: ٢٨). وأمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستشهد بهم على رسالته، «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» (الرعد: ٤٣).

واستشهد بهم سبحانه على صحة ما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» (الأنعام: ١٨٤). وجعل سبحانه كتابه آيات بينات في صدورهم، قال تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابُ الْمُبْطِلُونَ ٤٨ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيْنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ» (العنكبوت: ٤٨-٤٩).

ونفى سبحانه التسوية بين العالمين والجاهلين، فقال تعالى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (الزمر: ٩). وأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكتفي بشهادة أهل العلم ولا يعبأ بالجاهلين، فقال تعالى: «وَقَرَأْنَا هَرَقَنَاهُ لِنُفَرِّقَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةَ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ١٠٦ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا» (الإسراء: ١٠٦-١٠٨).

وأخبر سبحانه عن رفعة درجات أهل العلم، فقال تعالى: «يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» (المجادلة: ١١). وعن ابن مسعود قال: "ما خَصَّ الله العلماء في شيء من القرآن ما خصَّهم في هذه الآية، فَضَّلَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَأُوتُوا الْعِلْمَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُوْتُوا الْعِلْمَ". الدر المنثور (٨/٨٣).

ودعا الله الناس إلى سؤالهم فيما يجد من مسائل وقضايا؛ فأجابتهم تزييل الشبهات، قال الله تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (النحل: ٤٣). وأخبر سبحانه أنهم المنتفعون بضرب الأمثال. قال تعالى: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ» (العنكبوت: ٤٣).

ولذا كان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه

يبكي ويقول: لست من العالمين. وأخير سبحانه أن العلماء سيشهدون للأنبياء على أمهم يوم القيامة، فقال تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة: ١٤٣). والخطاب وإن كان للامة إلا أنه من العام المخصوص؛ لأن الجاهل شهادته مردودة، ولذلك قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: (باب: «كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا») وما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم. وقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل العلم، فقال صلى الله عليه وسلم: «وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظ وافر». رواه البخاري (١٧٤/١)، (١٧٥)، ومسلم (٢٦٧٣).

وقد وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم باغتنام حياة العلماء، وأخذ العلم عنهم قبل أن يموتوا، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا». رواه البخاري (١٧٤/١)، (١٧٥)، ومسلم (٢٦٧٣).

وقد قيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا هلك علماؤهم.

ومع هذا البناء من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على أولي العلم؛ فإنهم لم يسلموا من أقوام يحطون من أقدارهم ويجترئون على مقامهم، وينزعون من مهابتهم، يطعنون في أعمالهم وجهودهم، ويشككون في قدراتهم وكفاءاتهم، ويبلبلون على العامة، يوزعون الاتهامات، ويتبعون المعاييب، والأشد من ذلك والأنكى اتهام النيات، والحكم على المقاصد، والتناول على السرائر التي لا يعلمها إلا الله. ولا شك أن هذا ضرر على الدين؛ فالطعن في العلماء ليس طعناً في شخصهم وإنما طعن في العلم الذي يحملونه، وبالتالي طعن في الإسلام.



فاحذروا -إخواني- كل الحذر من التطاول على علماء الأمة، فالتجريح بغير حق لا يجوز، ورفض الدليل مُحَرَّم لا يسوغ، والمنهج الحق الأخذ بالدليل مع وافر الحرمة والتقدير لأئمة العلم والدين، ومن كانت له نادرة ينبغي أن تُدْفَن في بحر علمه، وتُنَسَى في جانب عظيم فضله، فالعصمة غير مضمونة لأي عالم، ولكن المضمون لهم -إن شاء الله- الأجر على اجتهداهم، أصابوا أو أخطئوا.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله: لو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهداه في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له، قمنا عليه، وبدّعناه وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، ونعوذ بالله من الهوى والفضاظة. اهـ. (السير)

احذروا التطاول على مناهج الأئمة، وعلماء الأمة، أو التهوين من فقه السلف، ومن ظفر بخطأ عالم فلا يفرح، ولا يتبع العثرات، ولكن ليصحح الخطأ، وليتنبه إلى الصواب، يُحيط ذلك سياج من الخلق الفاضل، في لسان عفيف، ونظر متورّع. وقبل ذلك وبعده هو بحاجة إلى إخلاص القصد لله وحده، والتجرد للحق، وليحذر التشهير والتشنيع، وألا يظن بهم إلا خيراً.

قال الله تعالى: «لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَبَرًا» (النور: ١٢)، وبخاصة أولئك الأعلام الذين يُعلمون الناس الخير، يجب على الأمة أن تحفظ حقوقهم، وتعرف مكانتهم، وتقدرهم حق قدرهم، وتلتزم الأدب معهم. إنهم العلماء وارثو علم الرسالة، خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم في أمته، المُخَيَّون لما مات من سنته، فمعلم الناس الخير يُصلي عليه الله وملائكته ويستغفر له كل شيء حتى الحيتان في جوف البحر، والنملة في جحرها، فعليكم إخواني بتبجيل العلماء أهل الفضل والإيمان.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل». (الطحاوية، ص ٥٨، بتعليق شيخنا الألباني رحمه الله).

وقال الحافظ ابن عساكر: «أعلم -وَقَفْنَا اللَّهُ وَايَاكَ لِمَرْضَاتِهِ، وَجَعَلْنَا مِمَّنْ يَخْشَاهُ وَيَتَّقِيهِ حَقَّ تَقَاتِهِ-، أَنَّ لِحُومَ الْعُلَمَاءِ مَسْمُومَةٌ، وَعَادَةُ اللَّهِ فِي الْإِنْتِقَامِ مِنْ مُنْتَقَصِهِمْ مَعْلُومَةٌ، وَمَنْ أَطْلَقَ لِسَانَهُ فِي الْعُلَمَاءِ بِالنِّبْلِ ابْتِلَاهُ اللَّهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِمَوْتِ الْقَلْبِ». (مقدمة المجموع شرح المذهب: ١/٢٤).

ومن قبل قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من أذى فقيهاً فقد أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أذى الله عز وجل».

ألا فليترك الله من أشغل نفسه بتجريح العلماء وطلبة العلم والتحذير منهم، فينشغل بالبحث عن عيوبه للتخلص منها بدلاً من الاشتغال بعيوب الآخرين، ويحافظ على حسناته فلا يضيق بها ذرعاً، فيوزعها على من ابتلي بتجريحهم والنيل منهم، وهو أحوج من غيره إلى تلك الحسنات في «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (الشعراء: ٨٨-٨٩)، وأن يشغل نفسه بدلاً من التجريح والتحذير بتحصيل العلم النافع، والجد والاجتهاد فيه ليستفيد ويفيد، وينتفع وينفع، فمن الخير للإنسان أن يشتغل بالعلم تعلماً وتعلماً، ودعوة وتأييلاً، إذا تمكّن من ذلك ليكون من أهل البناء، وألا يشغل نفسه بتجريح العلماء وطلبة العلم من أهل السنة، وقطع الطريق الموصلة إلى الاستفادة منهم، لئلا يكون من أهل الهدم. ومثل هذا المشتغل بالتجريح لا يُخلف بعده إذا مات علماً يُنتفع به، ولا يفقد الناس بموته عالماً ينفعهم. بل بموته يسلمون من شره.

فيا إخواني!! العلماء العلماء؛ أنزلوهم منازلهم وأجلوهم واحترمواهم، قال صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنْ مَنْ لَمْ يُجَلِّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالَمِنَا حَقَّهُ». صحيح الجامع (٥٤٤٣).

ومن وصايا لقمان: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يُحيي القلوب بنور الحكمة، كما يُحيي الأرض بوابل المطر».

وأسأل الله عز وجل أن يوفق الجميع لما يرضيه وللفقه في الدين والثبات على الحق، والاشتغال بما يُغني عما لا يُغني، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

